الإدراك بين الأحادية والتعددية القطبيتين: مقاربة في الخوارزميات الإبستيمولوجية لتأصيل التكامل المعرفي في الإسلام

أ.د. محمد ثناء الله الندوي

جامعة على كره الإسلامية، الهند

تمهيد:

إشكالية الإدراك تتشكل دائرة تتمركز حولها مباحث فلسفية عدة فى مجال الحس الرؤيوي الطامح لرسم خيوط الوصل و الفصل فى تشريع المعرفة فى سياق أسئلة مناهج ومرجعيات التفكير الأنطولوجي. الإدراك بإعتباره النقطة البؤرية للعمل الفلسفي ظل محتفظا بمكانة مركزية منذ أن بدأ الإنسان دراسة الوجود فى الأنفس والأفاق: يستقرأه و يستنبط منه ما يبنى به لحمة و سدى منظومة مفاهيمية تتطلبها الحياة فردا و جماعة. فالفلسفة منذ عهدها المبكر فى التاريخ الإنساني - إلى زمن عمانوئل كانط (1724 - 1804م) – أصرت على أنها معرفة العالم، و لكن بداية بالتفكير الديكارتي (ديكارت: 1596-1650) و مارا على نقد العقل المحض (كانط) و فهم التعقل الإنساني (جون لوك، 1632-1704) مالت إلى تعريف نفسها بأنها بل تفكير في معرفة العالم أو هي معرفة بالمعرفة. ومن هنا وجد التمييز بداية بين طريقة وضع المشكلة لدى فلاسفة

اليونـان بشـكل عـام،[1] وبـين طريقـة وضـع المشـكلة عنـد الغـربيين فـي العصـر الحديث، وعند العلماء المسلمين من أمثال الأشعري (ت 324 هـ) و القاضي عبد الجبار المعتزلي (ت 415هـ)، و الباقلاني (ت 403هـ) ، و الرازي (ت 606 هـ)[2] و الغزالـي (ت 505 هـ)، و صـدر المتـألهين الشـيرازي (1571-1640) ،[3] وسواهم.[4]

فى سياق المنهج التجريبي الذى لن يفقد بعده الإنساني عبر التاريخ رغم كل ما قيل عنها و يقال بإعتبارها آلية منهجية اختص بها النظر العلمي في المعارف الطبيعية والكونية، و ميلها إلى الإلحاد، و قاعدة الاستقراء كإحدى الدعائم

---

[1] يراجع: ديوجين لائرتوس : مختصر تاريخ فلاسفة اليونان ، ترجمة عبد الله حسين المصري، 1904م مطبعة التمدن ، د. أحمد فؤاد الأهواني : فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط ، محاضرات ألقاها 1953 – 1954 م، الطبعة الأولي 1954م ، دار إحياء الكتب العربية عيسي البابي الحلبي وشركاه ، د. محمد علي أبو ريان : تاريخ الفكر الفلسفي : أرسطو والمدارس المتأخرة ،1986م ، دار النهضة العربية ، برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، ترجمة د. زكي نجيب محمود ، مراجعة المرحوم أحمد أمين ، 1957م ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وزارة التربية والتعليم قسم الترجمة ، الإدارة العامة للثقافة – القاهرة ، الكتاب الأول، الفلسفة القديمة.

[2] انظر: فخر الدين الرازي: اصول الدين، راجعه وقدم له وعلق عليه طه عبد الرؤوف سعد، دار الكتاب العربي،1404هـ - 1984م.

[3] انظر: صدر المتألهين: الأسفار الأربعة (تحقيق الطباطبائ، 1378 هـ)، اسرار الايات، مقدمة وتصحيح محمد خواجوي، انتشارات انجمن اسلامي حكمت وفلسفه ايران، 1402هـ. و أنظر:

S.H. Nasr, *Mulla Sadra Commemorative Volume*, Tehran, 1380/1961; H. Corbin, *Le livre des péneterations metaphysiques* (Tehran-Paris, 1964); Comte de Gobineau, *Les religions et les philosophies dans l'Asie Centrale*, pp. 79-88.

[4] يراجع: محمد ابراهيم الفيومي: تاريخ الفلسفة الاسلامية في المغرب والاندلس، دار الجيل، بيروت، الطبعة الاولى،1417هـ - 1997م، يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الاوربية في العصر الوسيط، دار الكتاب المصري، الطبعة الاولى، 1946م.

الكبرى التي قام عليها العمران الأصولي (إبن خلدون أساسا)، و قانون العلاقة السببية في الظواهر الاجتماعية كأحد أهم المسالك البحثية في فقه الظواهر ودراستها و الذى أصبح مجمل اعتماد السوسيولوجيين في تفسيراتهم (دورخايم 1858-1917م ، مثلا[1]) و منهج البحث التاريخي الذى يقوم النظر الاجتماعي وحتى النفسي في رصده للظواهر والقضايا على البحث في تاريخها ورصد مدى التطور الحاصل في بنياتها صعودا وأفولا، و حضور القياس بشكل قوي باعتباره أداة يستعان بها في البيان والاستدلال عند الأصوليين،[2] و فقه نفس الإنسان وفقه الظواهر الاجتماعية و رصد منظومة القيم الخ.. لا نجد أنفسنا فى دوامة خذل مفاهيمي أو مصطلحي أو منهجي يثبط الطموح فى مجال تنظيري لا ينحنى أمام تعالى المركزية الهيلينية فى الفلسفة. على أن ذلك لا يلغى شرعية الجدل لإستبدال مصطلح بأخر أو أخرى: إسلامية المعرفة (إسماعيل راجي الفاروقي 1921-1986)، منهج العلوم فى الإسلام،[3] و التكاملية المعرفية التى تجمع بين المذاهب : العقلي، و التجريبي ، و الحدسي، و البراغماتي، عبر الجمع بين العقل و الوحي.

---

[1] انظر دورخايم:

[2] انظر: فريد جبر وآخرين : مصطلحات علم المنطق عند العرب ، الطبعة الأولي 1996م ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت – لبنان ، و ابن تيمية : درء تعارض العقل و النقل ، تحقيق د. محمد رشاد سالم ، 1399 هـ / 1979م ، طبع هذا الكتاب على نفقة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، المملكة العربية السعودية ، جـ 33 ، ص 446 ، جـ 5 ، 174 ، جـ 7 ، ص 126 ، جـ 8 ، ص 267 – 268 .

[3] "من عقلانية الحداثة الغربية إلى عقلانية الإيمان التوحيدي". عبد الرزاق بلعرقوز. منشور في "إسلامية المعرفة" العدد 76 . ربيع 2014

1. المعرفة : أسئلة الوجود و الإمكان و الشك واليقين

نظرية المعرفة أو الإبستيمولوجيا تقوم أساسا على مخاطبة ظواهر أنطولوجية وفق المقولات الفلسفية و أخرى معرفية فى سياق المنهج و تداولية و نسبية القيم التى يعيشها الإنسان ضمن الآتي:

أ. تصور إمكان المعرفة.

ب. طبيعة المعرفة.

ج. مصادر المعرفة

د. قيمة المعرفة وحدودها.

هل المعرفة ممكنة؟ ظهرت مشكلة المعرفة بمعنى الكلمة أولا فى سياق الفكر الإغريفي عند بارمنيدس(ولد حوالى 515 ق. م.) الذى قال بوضوح أن هناك وجودا يتعدى كل ما تعرفه التجربة العادية وهو يربط بين العقل وذلك الوجود على حين أن اللاوجود يقوم على النظر والسمع وعلى اللغة التي يستعملها عامة الناس. كثر أهتمام أرسطاطاليس (322- 384 ق. م.).بالبحث في وسائل المعرفة الإنسانية، ومدى ما يمكن أن نصل إليه من خلال هذه الوسائل، ولما وجد أن غالبية الناس يعتقدون أن حواسهم هي وسيلتهم في المعرفة بدأ بحثه في طبيعة الحواس ووجد أن طبيعتها تؤكد قصورها ومحدوديتها-.ومن ثم بحث فيما يمكن أن يؤديه العقل ووجد نفسه أنه قادر على أن يحلل ما تعطيه الحواس ويبني منه ما يسمى بالمعرفة الإنسانية فالإنسان هو العقل ويستدل ويقيس أساسا وليس هو فقط ما يستقرئ. الإنسان هو القادر وحده على تنظيم مشاهداته والاستفادة منها من تكوين بناء متكامل للمعرفة عن هذا العالم من خلال قدراته العقلية الفذة. ولعل ذلك هو ما جعل أرسطو يركز اهتمامه على دراسة العقل وإمكاناته المعرفية من جانب ومحاولته من جانب أخر وضع القوانين اللازمة لضبط التفكير العقلي حتى لا يبتعد العقل على المجال المعرفي الصحيح. من هذا كان تأسيس أرسطو للمنطق وفصله عن بقية العلوم كما كان

بحثه في نظرية المعرفة -.وأرسطو لم يفصل دراسة المعرفة من حيث هدفها وقيمتها عن كل من الميتافيزيقيا والمنطق لجعلها علما نظريا خالصا فقد ظلت نظرية المعرفة عنده مختلطة بالمنطق وكانت قيمة العلم وطرق تحصيله يشكلان سويا موضوع دراسة واحدة[1].

كانت نظرية المعرفة مبثوثة لدى الفلاسفة الغربيين في أبحاث الوجود، إلى أن جاء جون لوك (1632–1704) فكتب " مقالة في الفهم الانساني" *Essay Concerning Human Understanding* المطبوعة عام 1690م لتكون أول محاولة لفهم المعرفة البشرية وتحليل الفكر الإنساني وعملياته،[2] بينما سبقه بصورة غير مستقلة فرانسيس بيكون (1451–1626) رائد المدرسة الحسية الواقعية. والذي يقول إن المعرفة لا يمكن الحصول عليها إلا عن طريق الحواس وما لا يمكن معرفته عن طريق الحواس لا يعتبر موجودا،و إن كان قد سبقهم ديكارت في نظرية فطرية المعرفة. فديكارت رائد المدرسة العقلية المثالية، الذي يقول بفطرية المعرفة أي أن العقل البشري مفطور على معارف وعلوم أساسية يمكن عن طريقها أن يتوصل إلى المعارف والعلوم الأخرى وهو صاحب المقولة المشهورة : COGITO ERGO SUM (أنا أفكر إذن أنا موجود) .[3] وبعد ذلك جاء كانط (1724 – 1804م) فحدَّد طبيعة المعرفة وحدودها وعلاقتها بالوجود.[4]

---

[1] انظر: شرح ثامسيطوس لكتاب حرف اللام لارسطو، ضمن: ارسطو عند العرب، دار القلم، بيروت، ج1، ص20-21.

[2] انظر:
Rene Descartes, *Discourse on Method and Meditations on first Philosophy*. Translated by Donald A Cress, ISBN 978-1-60384-551-9

[3] انظر القضية فى بعدها الوجودي فى كتابنا: الإتجاهات الوجودية فى الشعر العربي الحديث (مطبوعات جامعة على كره الإسلامية، 2014م)

[4] انظر للباحث: *The Arab Legacy in Latin Europe* (Aligarh: Samia Publications, 2004)

ويعتبر فرنسيس بيكون (1561-1626) من المفكرين الأوائل الذين عملوا على إعادة النظر في مفهوم الحقيقة والمعرفة، ولم يعد يتوصل إليها بالحدس، والإلهام، أو بنوع من التجريد العقلي، بل تحولت إلى حقيقة نسبية تتحقق عبر التاريخ .وهذا التصور الجديد للمعرفة وللحقيقة هو ما أبرزه بيكون من خلال فلسفته، وعلى الخصوص من خلال تصنيفه لعلوم ومعارف عصره حيث سيقسم هذه العلوم أو المعارف إلى ثلاثة أنواع حسب ملكات المعرفة المختلفة. ويميز الفيلسوف برتراند راسل (1872-1970) بين نوعين من المعرفة: المعرفة باللقاء أو الاتصال المباشر، أي التي تُدرك بالحواس مباشرةً، والمعرفة بالوصف، أي التي تنطوي على استنتاجات عقلية. ونجد أغست كونت-1798) (1857يؤسس تطور المعرفة على قانون عام، يفترض أن تطور الفكر البشري، وكذا تطور المعارف عبر الزمن، عرف مراحل ثلاث: المرحلة اللاهوتية، و المرحلة الميتافيزيقية، و المرحلة الوضعية. ثم اتخذت نظرية المعرفة وضعها المستقل لتبحث في العلاقة بين الذات العارفة" الإنسان" والموضوع المدروس والنظر في حدود المعرفة البشرية وقيمتها وطبيعتها ومصادرها. فصارت نظرية المعرفة.

2. أنطولوجيا المعرفة

شغل السؤال عن طبيعة المعرفة الإنسانية وحقيقتها العديد من الفلاسفة والباحثين، وحاولوا الإجابة عنه بطرق مختلفة، وذلك لبيان كيفية العلم بالأشياء، أي كيفية اتصال القوى المدركة لدى الإنسان بموضوعات الإدراك، وعلاقة كل منهما بالأخر .فهل المعرفة في النهاية ذات طبيعة مثالية يرتبط فيها وجود المعرفة بوجود العارف؟ أم أنها ذات طبيعة واقعية تستقل فيها المعرفة عن العارف؟ أم أنها ذات طبيعة عملية ترتبط بمدى الانتفاع منها؟ وهنا انقسم الفلاسفة والباحثون في مسألة طبيعة المعرفة إلى ثلاثة أقسام، هي :المذهب المثالي، والمذهب الواقعي، والمذهب العملي (البراغماتي).

ترجع أصول المثالية إلى أفلاطون (429-347 ق. م.) الذي اعتقد بوجود عالمين: العالم الحقيقي الذي توجد فيه الافكار الحقيقية المستقلة والثابتة، والعالم الواقعي الذي هو ظل للعالم الحقيقي.(ويتفق المثاليون في تصورهم لطبيعة المعرفة، وفي اتجاههم العام نحو النظر إلى الأشياء الطبيعية باعتبارها غير مستقلة بنفسها، ولا تقوم بذاتها، وإنما تعتمد في وجودها على العقل أو الذهن. ولذلك، فإن الحقيقة النهائية، تكون في نظرهم ذات طبيعة عقلية أو ذهنية.وانطلاقا من نظرتهم الازدواجية للعالم، فإن المثاليين ينظرون نظرة ازدواجية للإنسان أيضاً، أي أنه مكون من عقل ومادة. وبما أن الإنسان جوهره العقل، وأن الحواس مشكوك في صحتها ودقتها، وأن الأشياء لا معنى لها من غير العقل البشري، إذا فإدراك الإنسان أساسه العقل مستقلا عن التجارب الحسية.وكلما كانت المعرفة مجردة عن الإدراكات الحسية كلما سمت وارتقت وكانت أكثر ثباتاً ويقيناً.ويقوم المذهب المثالي في المعرفة على أساس أننا (إذا أردنا أن نعرف الواقع أكثر، ونفهم طبيعته ونتبصر حقيقته بشكل أعمق؛ فلن يكون ذلك بالبحث في العلوم الطبيعية بما فيها من اهتمام بالمادة والحركة والقوة، وإنما يكون بالاتجاه نحو الفكر والعقل، والالتزام بالقوى المثالية والقيم الروحية لدى الانسان.(وقد ظهر المذهب المثالي في صور شتى، من أهمها: المثالية التقليدية (المفارقة)، والمثالية الذاتية، والمثالية النقدية، والمثالية الموضوعية (المطلقة).

ارتبطت المثالية التقليدية (المفارقة) بأفلاطون، وتعني: ان هناك وجودا مثاليا للأشياء، وأن وجود هذه المثل هو وجود مفارق للأشياء الواقعية. وأن الطبيعة الحقة للشيء لا توجد في الظواهر التي تقدمها الحواس، بل توجد في المثال، وبذلك لا يمكن معرفتها إلا عن طريق العقل وحده.ويميز أفلاطون بين نوعين من المعرفة، المعرفة الظنية: وهي المعرفة بعالم الأشياء المادية التي تأتي إلينا عن طريق الحواس، وتتصف بالتغير وتتعلق بالمظهر، والمعرفة اليقينية:

وهي المعرفة بعالم المثل المفارق للمادة، وتأتي إلينا عن طريق العقل، وتتميز بالثبات وترتبط بالحقيقة. .2. أما المثالية الذاتية فجاءت في العصور الحديثة، وبالتحديد في أواخر القرن 17 م، على يد جورج باركلي(1685–1753) الذي يلخص نظرته لطبيعة المعرفة في عبارته المشهورة: (أن يوجد هو: يعني أن يُدرِك أو أن يُدرَك). إذ يرى أن وجود الشيء هو إدراكه، وأن الشيء ليس له وجود مادي مستقل عن إدراكنا له، وأنكر وجود العالم المادي مستقلا عن الإدراك.والحقيقة أن هذه النظرية تلغي المعرفة الإنسانية من ناحية موضوعية بشكل تام، لأنها لا تعترف بموضوعية الفكر والإدراك، ووجود الشيء خارج حدودها. [1] .3. المثالية النقدية ارتبطت تسميتها في العصر الحديث بعمانويل كانط. والمثالية النقدية نوع خاص من المثالية ترى ضرورة البدء بفحص العقل، ومعرفة حدوده، ومعرفة قدراته قبل الوثوق به والاعتماد عليه واستخدامه في تحصيل المعرفة. ويرى كانط أن (التصورات العقلية تكون فارغة إذا لم ترتبط بالادراكات الحسية، وأن الادراكات الحسية تكون عمياء إذا لم تعتمد على التصورات العقلية. وإذا كانت عملية الإدراك لا تتم إلا بالترابط بين الصور العقلية والمدركات الحسية، فمعنى هذا أننا لا نستطيع أن نعرف إلا ظواهر الأشياء، أما الأشياء ذاتها فلا سبيل لنا لمعرفتها، لأن الحواس لا تقدم لنا غلا ما يظهر من الأشياء، والعقل لا يستطيع أن ينفذ من وراء الظواهر ليكشف الواقع الحقيقي.

ترتبط المثالية الموضوعية (المطلقة) بالفيلسوف هيجل (1770–1831)، الذي أكد ان استخدامنا لنظام المنطق بصورة دقيقة هو الذي سيوصلنا على الفكرة المطلقة. والمثالية المطلقة هي الاتجاه الفلسفي المثالي الذي يذهب إلى أولوية الروح على المادة، ويرى أن المصدر الأول للوجود ليس هو العقل

---

[1] أنظر:

Alexander Campbell Fraser (Ed), *The Works of George Berkeley*. 4 vols (Clarendon Press, 1909)

الإنساني الشخصي، وإنما هو العقل الكلي أو الروح المطلقة.وهكذا يتفق هيجل مع المثاليين جميعاً في نظرتهم إلى طبيعة المعرفة باعتبارها في النهاية معرفة عقلية أو روحية، وفي نظرتهم إلى الواقع باعتباره في النهاية تجسيدا للعقل أو الروح .ومن ثم فلا سبيل على فهمه إلا من خلال العقل، المصدر الوحيد للوجود والمعرفة معاً.[1]

تقوم فكرة المذهب الواقعي على أن مصدر كل الحقائق هو هذا العالم الذي نعيش فيه (عالم الواقع)، أي عالم التجربة والخبرة اليومية، ويعتبر أرسطو ابا للواقعية.ويعود الأصل في تسمية المذهب بالواقعي إلى الأساس الذي قام عليه هذا المذهب، وهو الاعتقاد في المادة. فالحقيقة موجودة في هذا العالم (عالم الاشياء الفيزيقية) ووجودها حقيقي واقعي يقوم على ثلاثة أسس رئيسية، وهي : أن هناك عالم له وجود لم يصنعه أو يخلقه الإنسان، ولم يسبقه وجود وأفكار مسبقة أن هذا العالم الحقيقي يمكن معرفته بالعقل الحقيقي، سواء بالعقل الإنساني أو الحدس أو التجربة . أن هذه المعرفة يمكن أن ترشد وتوجه السلوك الفردي والاجتماعي الضروري للانسان.ويرى المذهب الواقعي أن (ماهية المعرفة ليست من جنس الفكر او الذات العارفة، بل هي من جنس الوجود الخارجي، إذ أن للأعيان الخارجية وجوداً واقعياً مستقلاً عن أي عقل يدركها، وأن العقل إنما يدركها على ما هي عليه بقدر طاقته.

المعرفة على مذهب المثاليين أو الواقعيين لا تؤدي بك على عمل تعمله، أي لا تتضمن سلوكا معينا يقوم به الشخص العارف، ومن هنا كان الفلاسفة يفرقون بين الفكر والعمل، فيقولون: إن رجل الفكر قد لا يكون رجلا عملياً، ورجل العمل قد لا يكون صاحب فكر، إيمانا منهم بان المعرفة شيء لا

---

[1] انظر:

Hegel, *Science of Logic*. Translated by W.H. Johnson and L.G. Strutters. 2 vols (1929), Bubidge, John, *The Logic of Hegel's Logic: An Examination.* New York: Oxford University Press. ISBN 0-19-519879-4.

يستدعي بالضرورة سلوكاً معيناً في الحياة العملية.أما المذهب العملي أو البراغماتي فقد (غيّر النظرة على طبيعة المعرفة، حيث جعل المعرفة أداة للسلوك العملي، أي أن الفكرة من افكارنا هي بمثابة خطة يمكن الاهتداء بها للقيام بعمل معين، والفكرة التي لا تهدي إلى عمل يمكن أداؤه ليست فكرة، بل ليست شيئا على الاطلاق، غلا أن تكون وهماً في رأس صاحبها.(والمذهب البراغماتي يمثل إحدى المدارس الفلسفية والفكرية التي نشأت في الولايات المتحدة الأمريكية بداية القرن 19م، وتتميز البراغماتية بالإصرار على النتائج والمنفعة والعملية كمكونات أساسية للحقيقة. ويعتبر تشارلز بيرس الأمريكي (1839–1914) أول من ادخل لفظة براغماتية للفلسفة. وذهب وليم جيمس (1842–1910) إلى أن المعرفة العملية هي المقياس لصحة الأشياء، وأن البراغماتية تعني إمكانية البحث المتاحة ضد الوثوقية التعسفية واليقينية الجازمة وادعاء النهائية في الحقيقة .أما جون ديوي، وهو المنظر الحقيقي للبراغماتية فيرى أن العقل أو التجربة الحسية ليسا أداة للمعرفة، وإنما هما أداة لتطور الحياة وتنميتها، فليس من وظيفة العقل أن يعرف، وإنما تكمن وظيفته في خدمة الحياة، وتكمن آثار المعرفة في مدى إمكانية تطبيقها وتوظيفها عمليا[1].

3. نظرية المعرفة في التاريخ الإسلامي

العلم صفة من الصفات الإلهية التى ينكشف بها المعلوم لله تعالى انكشافا تامة ، وقد شغل مفهوم العلم في القرآن الكريم حيزا هاما من الآيات ، والناظر في القرآن يجد أن الله تعالى أضاف العلم لنفسه ، من ذلك قوله تعالى : والله يعلم وأنتم لا تعلمون [البقرة :216] وإضافة العلم لله جاءت في القرآن الكريم بصيغة مختلفة منها صيغة " أعْلم" قال تعالى: والله أعلم بما يكتمون [167 آل عمران] وصيغة " عليم" : والله عليم بالظالمين [البقرة: 95] وصيغة " علَّام " :

[1] انظر:
Louis Menand, *The Metaphysical Club: A Story of Ideas in America*. 2001. ISBN 0-374-52849-7

إنك أنت علَّام الغيوب" [المائدة: 109] ... واختلاف هذه الصِّيغ لبيان أن صفة العلم من أعظم الصفات الإلهية شأنها كشأن القدرة والإرادة . وكما أضاف الله تعالى العلم لنفسه أضافه للإنسان ، قال تعالى " فأمَّا الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم " [البقرة: 26]. و يقول القرآن فى سياق نسبة العلم إلى الإنسان: و ما أوتيتم من العلم إلا قليلا [الإسرآء: 85].

استوقف موضوع العلم ونظرية المعرفة علماء المسلمين؛ فلاسفة ومتكلمين، وعقدوا أبوابا وفصولا، بل كتبا في العلم والمعرفة: فالقاضي عبد الجبار المعتزلي (ت 415هـ) صنف مجلدا كبيرا، من موسوعته (المغني) سماه (النظر والمعارف)، تحدث فيه بالتفصيل عن حد النظر والعلم والمعرفة وطرقها وحقيقتها، وطرق معرفة صحة النظر، ودرجات المعرفة من الشك على الظن على اليقين. وتحدث عن الدليل العقلي والسمعي، وأول ما يجب على المكلف، وطريق وجوب المعرفة .[1] ثم جاء الباقلاني (ت 403هـ) ليقدم لكتابه (التمهيد) بباب العلوم في (العلم وأقسامه وطرقه)، ثم البغدادي (ت429هـ) في كتابه (أصول الدين) جعل الأصل الأول منه معقودا على بيان الحقائق وإثباتها وطرق تحصيلها وأقسامها. والرازي جعل الركن الأول لكتابه (التحصيل) في العلم والنظر. كما أن عضد الدين الإيجي (700-756 هـ) يجعل الموقف الأول في كتابه (المواقف) في العلم والنظر كذلك، يجمع فيه آراء المدارس ويناقشها- ونجدها أيضا في مقالات الفرق، مثل كتاب (مقالات الاسلاميين) للأشعري (260-326 هـ)، و(الفرق بين الفرق) لعبد القاهر البغدادي (980-1037)، و(المنقذ من الضلال) و(المستصفى) للغزالي. وكذلك في كتاب (التعريفات) السيد الشريف الجرجاني (1339-1413). ونجد الكندي (يعقوب بن اسحاق 805-873م) حاول ضبط العلم والمعرفة في مؤلفاته، ومنها (رسالة في حدود الاشياء

[1] يراجع: حسني زينه : العقل عند المعتزلة : تصور العقل عند القاضي عبد الجبار (دار الآفاق الجديدة)، كريم عزقول: العقل فى الإسلام (بيروت، 1946)

ورسومها. الفارابي (870-950) الذي تحدث عن العلم وحده وتقسيماته في (البرهان) وفي كتب أخرى[1]. وإبن سينا (980-1037) الذي تناول الإدراك والعلم واليقين في كتابه (الاشارات والتنبيهات)[2] وفي غيرها من كتبه. وابن رشد (1126-1198) الذي سعى تمييز العلم الحقيقي من غيره في (تهافت التهافت). و على بن محمد الآمدي (ت 631 هـ) في (الإحكام في أصول الأحكام) الذي تحدث فيه عن العلم والكلي والجزئي وغيره من المفاهيم-.ونجد ابن الحاجب (ت 646 هـ) في (مختصر المنتهى الاصولي) يتناول قضايا المعرفة والتصور والتصديق وغيرها . ونجم الدين القزويني الكاتبي (600-657 هـ) في (الرسالة الشمسية)، يتناول حد العلم وكيفية حصوله في العقل-.وهناك عدد كبير من علماء المسلمين من الأصوليين والفقهاء والمتكلمين والفلاسفة وغيرهم ممن تناول موضوعا أو أكثر من موضوعات المعرفة في كتبه. الملاحظ من خلال استعراض لتاريخ نشأة نظرية المعرفة أنها عند الفلاسفة الأقدمين، كانت مبثوثة متفرقة، في ثنايا أبحاث الوجود والقيم، بل لم يكن يجمعها كتاب واحد أو دراسة منهجية مستقلة، فقد كانت متضمنة مثلا عند أفلاطون في أبحاثه في الجدل، وعند أرسطو في بحث ما وراء الطبيعة، دون أن يميزوا بين موضوع المعرفة وموضوع (الميتافيزيقا)، إلا انهم بحثوا في أهم جوانب المعرفة. ولعل علماءنا المسلمين قد سبقوا غيرهم في إفراد بحث المعرفة بصورة مستقلة في

---

[1] أنظر: انظر رسائل الفارابي التالية: رسالة الفصوص، ضمن الثمرة المرضية في بعض الرسالات الفارابية، تصحيح الشيخ فريد، خ. ديتريصي، طبع في مدينة ليدن، ص78. ورسالة الدعاوي القلبية، ضمن رسائل الفارابي، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند، الطبعة الأُولى، 1345هـ - 1926م، و الفارابي : المدينة الفاضلة ، إعداد د. علي عبد الواحد وافي ، 1393 هـ / 1973م ، ملتزم الطبع والنشر دار الكتب للطبع والنشر .

[2] أنظر: ابن سينا: الاشارات والتنبيهات، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف بمصر، طبعة ثانية، القسم الثالث.

كتبهم، لأهمية هذا الموضوع بالنسبة لهم، وعلاقته بالوجود، بينما لم يبدأ إفرادها عن الفلاسفة الغربيين إلا مع جون لوك في القرن السابع عشر.

4. المعرفة بين الشك المذهبي و الشك النقدي:

البحث المعرفي يفرز أمامنا ثلاثة اتجاهات أساسية : (1) الشك المطلق في إمكان المعرف، و هو المسمى بـ (Skepticism) (2) يقينية المعرفة، وهم الاعتقاديون أو الدغمائيون . (3) القول بإمكان الانسان أن يصل على معرفة متناسبة مع قدراته الحسية والعقلية، وهم النسبيون.

الشك في أصله هو التردد في إصدار حكم بغرض الإمعان والتفحص، وهو ما يطابق معنى اللفظ اليوناني. إلا أن الشك القديم لم يكن يحمل هذا المعنى كما أنه اتخذ معنى جديداً في وقت لاحق.فالصراع والتضارب بين المتناقضات الفلسفية في الفكر اليوناني كان سببا لبلبلة فكرية وارتياب جذري، انتهت بهم على إنكار جميع الركائز الفكرية للإنسان، وإنكار المحسوسات والبديهيات.وأول من ظهر على يديه هذا المذهب فيرو (360–270 ق.م.) . وقد وضع جورجياس (380 ق.م) كتابا تحدث فيه عن عدم إمكان المعرفة، وعدم الوثوق بالعقل والحواس.ثم جاء السوفسطائون وأنكروا وجود مقياس ثابت للحقائق، ورأوا امتناع وجود حقيقة مطلقة، وشكوا في كل شيء. وتحولت السفسطة على عبث بالفكر والعلم. وكانت هذه الطائفة تؤمن بالبحث والجدل، وأحيانا يصل بهم الجدل على إنكار أنفسهم أيضا . فعاشوا تناقضا بين وجودهم وتصوراتهم، ففي الوقت الذي ينكرون فيه كل حقيقة، تجدهم يلبون حاجاتهم البيولوجية دون ان ينكروا ذلك. وهذه المدرسة تنكر إمكان معرفة طبيعة الأشياء، وترى أن المعرفة الحسية والعقلية ليس لها قدرة تعريفنا بالحقيقة وإيصالنا إليها، فنحن لا ندرك من الأشياء إلا ما يبدو لنا. وكأن الأشياء خارج الذات المدركة محض مظهر، أما إدراك طبيعة ذوات الأشياء فلا سبيل إليه .ذلك لأن المعرفة – في رأي هذه المدرسة – تتأسس على الإدراك الحسي، والحواس خادعة لا تقود

إلى معرفة يقينية؛ وحتى النظر العقلي - عند الفيرونيين - يتأسس على الحس فمعرفته حسية غير مباشرة ومن ثمّ يكون أولى أن ينطبق عليه ما ينطبق على الحس من حيث عدم يقينية المعرفة.ولذلك كان شكهم شكا مذهبيا (مطلقا)، بمعنى انه يقوم على اساس أن الشك غاية في ذاته.

الشك المنهجي لا يعتبر الشك غاية في ذاته، بل يعتبر الشك وسيلة ليتوصل من خلاله إلى غاية أخرى وهي بلوغ اليقين. ويرجع هذا الشك في جذوره التاريخية إلى الفيلسوف اليوناني سقراط. كما استخدم أرسطو ومدرسته المشائية الشك استخداما منهجيا تأثرا بسقراط. إذ رأى أن اليقين المنطقي يجب أن يقوم على الشك كمنهج في فحص الأفكار والتأكد من قابليتها للتعميم.وعرف الشك المنهجي في حقل المعرفة الإسلامية عند المعتزلة، إذ كانوا يشترطون الشك كمقدمة ضرورية لصحة النظر المؤدي إلى العلم، إذ لا يصح النظر عندهم إلا مع الشك.أما أبو حامد الغزالي فقد سلك طريق الشك بحثا عن اليقين، وقد قرر في كتابه (المنقذ من الضلال) أن من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى.وكان ديكارت من أكثر الفلاسفة تأكيدا على ضرورة الشك كمنهج في التفكير.[1] وهو إلى جانب الغزالي يعتبر من واضعي أسس الشك المنهجي، وكان هذا الشك هو التمهيد الضروري للمنهج.ويعتبر الفيلسوف التجريبي ديفد هيوم من فلاسفة الشك المنهجي، الذي سماه بالشك العلمي.خلافاً لأصحاب الشك المطلق الذين يقعون في الحيرة فيمتنعون عن إصدار الأحكام، فإن أصحاب الشك المنهجي قد اتخذوا من الشك سبيلاً إلى اليقين، وهو عملية اختيارية هدفها إفراغ العقل مما فيه من

---

[1] أنظر : سليمان دنيا: الحقيقة في نظر الغزالي، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة، 1971م، ص395، أنور خالد الزعبى: مسألة المعرفة والمنهج عند الغزالي (المعهد العالمي للفكر الإسلامي، و دار الفكر دمشق، 2000)

معلومات سابقة قد تكون عرضة للمغالطة وعدم التأكيد، وذلك لتهيئة العقل لدراسة الأمور دراسة موضوعية غير متأثرة بالمفاهيم الشائعة والأخطاء المألوفة.القيمة العلمية للشك المنهجي:بعد أن تلاشى الشك بوصفه نظرية في المعرفة توطدت أركان الشك بوصفه منهجاً للبحث والتدقيق في المعرفة، وتمدد بأدواته من الشك المعرفي (الشك الإبستمولوجي)، بوصفه موضوعاً فلسفياً إلى شك منهجي يحفز الإنسان للبحث، والنظر، والتدقيق؛ ليشمل العلوم النظرية والتجريبية كافة، سواء تلك التي تولدت عن الفلسفة، واستقلت عنها، أو تلك التي نشأت مستقلة بذاتها.مجالات الشك:بمدارسة نوعي الشك (مطلق - منهجي) تبين لنا أن الشك المطلق هو شك في أصل المعرفة وإمكانيتها لذا يُسمى (بالمعرفي) لإنكاره إمكان المعرفة أو (الفلسفي والمذهبي) لكونه مذهباً فلسفياً يعتقد صاحبه بانتفاء موضوع المعرفة، واستحالة إدراكها، وفي مقابله نشأ الشك المنهجي بوصفه منهجاً للبحث عن الحقيقة لذا سُمي أيضاً (بالعلمي) وهو لا ينتقص من يقينية أصحابه بوجود حقيقة يمكن معرفتها، ومن هذه العلاقة الجدلية بين الإطلاق والنسبية يثور التساؤل حول المجالات التي يمكن أن يتطرق إليها الشك، بل التي طرقها بالفعل.ومجالات الشك تختلف في دائرة الشك المطلق عنها في دائرة الشك النسبي (المنهجي). أما مجالات الشك المطلق فهى عديدة :أ- الشك في الحقيقة التي هي موضوع المعرفة، وهو شك في وجودها.ب-الشك في إمكان معرفة الحقيقة (إن وجدت .ج- الشك في إمكان إبلاغ المعرفة أو تداولها.مجالات الشك النسبي:بعد التسليم بوجود حقيقة وإمكان إدراكنا لها، يظل الباب مفتوحاً لألوان من الشك النسبي أو الجزئي ومن ذلك:أ) الشك في طبيعة المعرفة :ومصدره تباين المذاهب في تكييف طبيعة المعرفة مما يوقف الفلاسفة موقف الشك تجاه هذا التباين.ب) الشك في مصادر المعرفة :فإنكار كل مذهب ومدرسة فلسفية لمصدر أو أكثر من مصادر المعرفة هو شك في جدوى هذا المصدر، ومدى يقينية المعرفة المتأسسة عليه، فمن

أصحاب المذاهب من يصب شكه على الحواس، ومنهم من يشك في العقل، ومنهم من يشك فيما سوى الحدس والإشراق، وكل ذلك من صور الشك.ج) الشك طريق إلى اليقين :وهو شك في المعلومات والآراء المسبقة، وهدفه إفراغ العقل توطئة لإعماره بحقائق يقينية تتأسس على بديهيات أولية، وهذا هو الشك الذي عاشه الغزالي. وحالة إفراغ الذهن أيضاً مرّ بها ديكارت حتى استقر على نقطة من اليقين في حقيقة تفكيره التي أسّس عليها حقيقة وجوده (أنا أفكر إذن أنا موجود).(د) تأسيس العقيدة بين الفطرة والشك والنظر:وهدف هذا الشك ومجاله ليس المعرفة النظرية، وإنما تأسيس إيمان يقيني بالله. فالإمام الجويني (419–478 هـ) يرى أن أول واجب على المكلف هو النظر - وهو رأي المعتزلة - بينما يرى الإمام الإيجي أن المعرفة تتقدم وطريقها النظر ومن ثم يكون واجباً، ولكن الإيجي لا يرى النظر هو السبيل الوحيد إلى المعرفة فقد تحصل بالإلهام، والتصفية، والتعليم، ولكنه قد يكون السبيل الوحيد لمن وقع في الشك، والشك على العموم حالة طارئة لا يلزم سبقه لكل نظر أو معرفة.أما شيخ الإسلام إبن تيمية (661–728 ه) فيرى أن للفطرة أثراً أساسياً في معرفة الله، ثم من حصل له الشك ولم يكن من سبيل لدفعه سوى النظر؛ يلزمه النظر - فهو يوافق رأي الإيجي - كما يرى الشك أمراً عارضاً علاجه النظر - وفي ذلك يوافق القاضي عبد الجبار - مع تحذيره من عواقب إتاحة النظر للعامة لصعوبة طرقه، وما قد يثيره في نفوس جمهور الخلق.فالشك إذن تتعدد صوره ومجالاته من كلّي إلى جزئي، ومن مطلق إلى نسبي، فيصل في قمته إلى درجة إنكار الحقائق الموضوعية، وفي أدنى منازله يكون شكاً في وسيلة من وسائل تحصيل المعرفة أو أداة من أدواتها، ويتلون اسمه بحسب نوعه ومجاله فالمتعلق بأسس الاستنباط يكون منطقياً، وربما كان جزئياً متعلقاً بالأسس المعرفية كالتجريبي، وغير ذلك من الأنواع.

تتمثل مصدرية العقل للمعرفة عند العقليين في صورتين:أ. هي التي يستغني فيها العقل لتحصيل المعرفة عن أي شيء سواه، من خلال استنباط قضايا جديدة من قضايا سابقة معلومة، بقطع النظر عن الوجود الخارجي.ب. هي التي تفسر مصدرية العقل للمعرفة برد الحكم على الأشياء إلى مبادئ العقل الفطرية، فمادة المعرفة تكون من الإدراكات الحسية، ولكنها لا تكون معرفة علمية إلا بالاحتكام إلى العقل الذي يجعلونه مصدرا لها، وهذه المعرفة تنقسم عندهم إلى معرفة بديهية أو ضرورية تضطر النفس إلى الإذعان لها والتسليم بها دون الحاجة على النظر والاستدلال، وإلى معرفة نظرية تحتاج إلى نظر واستدلال.وقد اتفق العقليون على أن :العقل قوة فطرية مشتركة بين بين الناس جميعا، وتصوروا أن مبادئه لا بد ان تكون كلية ومشتركة بين جميع الاذهان، وضرورية صادقة على جميع الاشياء، وأولية سابقة على كل تجربة.فالقول بأن (الكل أكبر من الجزء) أو (الشيء الواحد لا يمكن ان يكون موجودا وغير موجود في وقت واحد)، أو (الأكبر يحتوي الاصغر) أو (المساويان لثالث متساويان) كأن نقول (2+2=4). فهذه المبادئ وغيرها مبادئ عقلية تتصف بأنها :معارف قائمة بذاتها، سابقة للتجربة وليست نتيجة لها، تتصف بالضرورة أي لا تحتاج على برهان آخر لإثباتها، ولا تختلف هذه المعارف باختلاف الناس أو بتغير الأزمنة والأمكنة، لذلك فإن هذه المعارف هي معارف أولية قائمة بذاتها.وهكذا، يقوم موقف العقليين على التسليم بان للعقل مبادئ جاهزة، او طرقا فطرية هي التي تقوده إلى معرفة حقائق الاشياء، ومعارفه مستغنية عن أي معرفة سابقة. ولذلك، فإن الصورة المثلى عند العقليين هي تلك التي يمثلها البرهان الرياضي، فمثل هذه لابراهين تبدأ بالبيدهيات أو الحقائق القائمة بذاتها-. إن العقليين لا يرفضون ما تجيء به الحواس من معارف ومعلومات (غاية ما في الامر أنها معلومات لا يقطع بيقينها، حيث أن الحواس كثيرا ما تخدع، فأحيانا نرى شيئا وهو خلاف ما نراه ــــ وهي معارف تحتمل الخطأ ــــ فالحس على

أساس نظرية العقليين، مصدر فهم للتصورات والأفكار البسيطة، ولكنه ليس السبب الوحيد، بل هناك معارف أولية تثبت في العقل ابتداء، وهي سابقة على الحواس ومستغنية عنها -.فالمذهب العقلي يوضح أن الحجر الأساس للعلم هو المعلومات العقلية الأولية، وعلى ذلك الأساس يقوم البناء الفوقي للفكر الإنساني، الذي يسمى بالمعلومات الثانوية، أي المعلومات الحسية التجريبية-. فالعقل يمتلك إزاء كافة ظواهر الوجود ومظاهره أحكاما لا تتعدى ثلاثة أحكام ممكنة، فهو (العقل) إما ان يحكم عليها بانها أكيدة وواجبة، وإما أن يحكم عليها بأنها مستحيلة وممتنعة، وإما يحكم عليها بانها ممكنة وجائزة -.فأصحاب المذهب العقلي يرون أن الحجر الأساس للعلم هو المعلومات العقلية الأولية، أي أن المقياس للتفكير البشري – بصورة عامة – هو المعارف العقلية الضرورية، فهي الركيزة الاساسية التي لا يستغمي عنها كل مجال، ويجب ان تقاس صحة كل فكرة وخطئها في ضوئها. ويصبح ميدان المعرفة البشرية أوسع من الحس والتجربة.من اشهر الفلاسفة العقليين أفلاطون صاحب نظرية الاستذكار، وهي النظرية القائلة بأن الادراك عملية استذكار للمعلومات السابقة.وقد سار فلاسفة المذهب العقلي على طريق أفلاطون في اهتمامهم بالرياضيات واستخدامهم المنهج الرياضي، وعلى رأسهم أرسطو صاحب المنهج الاستدلالي في المعرفة.وفي العصر الحديث جاء ديكارت الذي قال (إن العقل هو اعدل قسمة بين البشر)، وتبنى الشك المنهجي منهجا للمعرفة، وكذلك اسبينوزا الذي واصل طريق ديكارت في استخدام المنهج الرياضي، والوضوح العقلي معيارا للحقيقة.ثم ليبنيتز الذي يرى أن جميع القضايا الصادقة يمكن معرفتها بواسطة الاستدلال العقلي الخالص، وذهب إلى أن أفكارنا تكون أصلا في أذهاننا.كما يعتبر كانط صاحب المذهب النقدي من العقلانيين، إذ كان يميز في المعرفة بين ما هو أولي سابق على كل تجربة، ما هو بعدي مكتسب

بالتجربـة، فالصـورة الأوليـة السـابقة علـى التجربـة هـي الأسـاس فـي اكتسـاب المعرفة.

المذهب التجربي يعتبر الخبرة مصدرا للمعرفة وليس العقل، والتجربة بهذا المعنى نقيض الفلسفة العقلية التي تفترض أن هناك أفكارا لا يمكن أن تزودنا بها الحواس وينشئها العقل بمعزل عن الخبرة، وتسمى لذلك معرفة فطرية أو قبلية.وبرزت التجربة على يد جون لوك، وباركلي، وديفيد هيوم، وستيوارت مل. ثم تجسدت في الوضعية المنطقية والظاهراتية.والتجريبية أو الحسية هي: (الاسم النوعي لكل المذاهب لافلسفية التي تنفي وجود معارف أولية بوضفها مبادئ معرفية.(ويقوم المذهب التجريبي في المعرفة على أساس أن التجربة هي المصدر الأول لجميع المعارف الإنسانية، وأن الحواس وحدها هي أبواب المعرفة، فليس في العقل شيء لم يمر بالحس أولا، وينكر التجريبيون أن يولد العقل مزودا بأفكار فطرية كما يزعم العقليون.تبنى المعارف عند التجريبيين على الظواهر الحسية؛ لأنها المقياس الصحيح في بت الحكم. وليس هناك معرفة فطرية أولية سابقة على التجربة، وليس هناك ضرورة عقلية كما يسير عليه المذهب العقلي.فالتجريبيون لا يعترفون بمعارف عقلية ضرورية سابقة على التجربة، ويعتبرون التجربة الأساس الوحيد للحكم الصحيح، والمقياس العام في كل مجال من المجالات.يعتمد المذهب التجريبي على الطريقة الاستقرائية في الاستدلال والتفكير، لأنها طريقة الصعود من الجزئيات على الكليات.وإذا كان العقليون اهتموا بالمعارف الرياضية التي تقوم على العقل، فقد اهتم التجريبيون بالعلوم الطبيعية التي تقوم على التجربة ، وأنكروا قدرة العقل على أن يضمن لنا صدق القضايا التركيبية التي توضح لنا طبيعة العالم.فالمذهب التجريبي يتلخص في أن المعرفة الإنسانية هي معرفة بعدية، أي تأتي في مرحلة تالية أو متأخرة عن التجربة الحسية، فالعقل يستمد خبراته ومعلوماته من التجربة وحدها.ومن اشهر الفلاسفة التجريبيين جون لوك الذي حاول في كتابه (مقالة في التفكير الانساني)

أن يرجع جميع التصورات والافكار على الحس. وهو أول من طبق الاتجاه التجريبي في الفلسفة الغربية واعلن رفضه لأهم مبادئ الاتجاه العقلي، وإنكاره أن تكون المعرفة الانسانية اولية في العقل، سابقة على التجربة.وكذلك جورج باركلي الذي كان يرى بان أفكارنا هي ذاتها العالم الخارجي، ولم يعترف إلا بما يظهر لنا من الأشياء من خلال إدراكنا الحسي لها.ثم ديفيد هيوم الذي اعتبر ان كل المعارف هي ذات أصول حسية، حتى المعارف العقلية هي ذات أصول حسية، وقد أنكر الميتافيزيقا، واعتبر أن وجودها يكون حقيقيا في حال احساسنا بالقضايا المتعلقة بالقضايا المتعلقة بها.

المذهب الحدسي مذهب من يرى أن للحدس المكان الأول في تكوين المعرفة، ولهذه الحدسية معنيان:أ. إطلاقها على المذاهب التي تقرر أن المعرفة تستند إلى الحدس العقلي.ب. إطلاقها على المذاهب التي تقرر أن إدراك وجود الحقائق المادية هو إدراك حدسي مباشر، وليس إدراكا نظريا.يقول برووِر في وصف هذا النوع من الإدراك: (إن الانسان لديه ملكة مستقلة تمكنه من فهم الحقيقة وإدراك الواقع مباشرة، وهذه الملكة ليست حسية ولا عقلية وإنما هي حدسية مباشرة.(والحدس عند ديكارت هو: (الاطلاع العقلي المباشر على الحقائق البدهية.(وعند كانت هو: (الاطلاع المباشر على معنى حاضر بالذهن، من حيث هو حقيقة جزئية مفردة) .والحدس عند هنري بوانكريه هو: (الحكم السريع المؤكد، أو التنبؤ الغريزي بالوقائع والعلاقات المجردة، وهو الذي يكشف لنا عن العلاقات الخفية. وتعتبر الأفلاطونية المحدثة المنسوبة إلى أفلوطين رائدة الفكر الحدسي في المعرفة، فالمعرفة عندهم قائمة على الفيض والإشراق، ولا يمكن للإنسان أن يصل على المعرفة الحقة غلا عن طريق مداومة التأمل ورياضة النفس.وأفضل من يمثل المذهب الحدسي الفيلسوف الفرنسي هنري برجسون، الذي تأتي فلسفته كرد فعل على النزعة المادية والاتجاه العلمي الذي شاع في أوروبا في القرن 19 ميلادي.حتى أوشك هذا

الاتجاه أن يطغى على كل اتجاه روحي ... فالعقل عاجز عن إدراك الموضوع في صيرورته وديمومته، وهو لا يفهم حق الفهم إلا الأمور الجامدة التي تقبل القياس. أما الحدس فيتابع الموضوع في صيرورته، ويكشف عن حقيقته، ويحيط به في كليته.وحسب برجسون فإن الحدس مشاركة وجدانية تنتقل عن طريقها إلى باطن الموضوع، لكي تندمج مع ما في ذلك الموضوع .وقد جعل برجسون الحدس هو مصدر المعرفة الحقيقي للواقع. وهو اقرب للكشف الصوفي.وإذا كان برجسون تبنى الحدس وجعله مصدرا للمعرفة الحقيقية للواقع في الفلسفة الغربية فإن متصوفة المسلمين قد تبنوا الإلهام مصدرا للمعرفة وسبقوا بذلك فلاسفة الغرب في تبنيهم للحدس .ذهب برجسون إلى أنه بالإضافة إلى العقل الذي توهّم أنصاره أنه يقدم لنا المعرفة برمتها توجد ملكة أخرى للمعرفة؛ وهي من قبيل التجربة الوجدانية، سماها الحدس (Intuition). يقصد بالحدس عدة معانٍ متباينة:الحدس الحسي:هو الإدراك المباشر عن طريق الحواس الإنسانية، مثل إدراك الضوء والروائح المختلفة.الحدس التجريبي:الإدراك المباشر الناشئ عن طريق الممارسة المستمرة، مثل إدراك الطبيب لداء المريض من مجرد المشاهدة .الحدس العقلي: الإدراك المباشر- دون براهين- للمعاني العقلية المجردة التي لا يمكن إجراء تجارب عملية عليها، مثل إدراك الزمان والمكان .الحدس التنبؤي: يحدث أحيانًا في الاكتشافات العلمية أن تكون نتيجة لمحة تطرأ على ذهن العالم بعد طول التجارب.

تطلق الفلسفة البراجماتية على مجموعة من الفلسفات المتباينة إلى حد ما، والتي ترتكز جميعها على مبدأ مؤداه أن صحة الفكر تعتمد على ما يؤدي إليه من نتائج عملية ناجحة، وكان الفيلسوف الأمريكي تشارلز ساندرز بيرس (1839–1914) هو أول من استخدم اسم البراجماتية وصاغ هذه الفلسفة. والبراغماتية (الذرائعية) مذهب فلسفي يرى أن معيار صدق الأفكار هو في عواقبها العملية، فالحقيقة تعرف من نجاحها. و يفسر النجاح بصورتين-1:النجاح

بمعنى المنفعة الشخصية ضمن نظام معين، فتكون الكذبة الناجحة حقيقة، وفي ظل هذه الصورة تتخذ الذرائعية مظهر السفسطة-2.النجاح بمعنى التطبيق العملي والعلمي الذي يتوافق مع قوانين الطبيعة، فنقر بحقيقة قانون أو نظرية إذا حقق تطبيقات عملية، وبهذا المعنى تقترب البراغماتية من العقلانية.ومن الفلاسفة الذين أذاعوا صيت المذهب البراغماتي الفيلسوف الأمريكي وليم جيمس. يقول جيمس: "الحق يقوم فيما هو مفيد (نافع) للفكر، كما أن العدل يقوم فيما هو نافع للسلوك، وأقصد بمفيد أنه: مفيد بأية طريقة، مفيد في نهاية الأمر في المجموع، لأن ما هو مفيد للتجربة المقصودة الآن لن يكون كذلك بالضرورة وبنفس الدرجة بالنسبة إلى تجارب لاحقة.[1]

تحليل

نلاحظ أن المذاهب الثلاثة السابقة ركزت على جانب وأهملت جانبا آخر أو جوانب أخرى تتعلق بطبيعة المعرفة، لأنها نظرت بطريقة تجزئية للإنسان (العارف) ولموضوع المعرفة، فبعضها اعتد بالعقل وأهمل الواقع، والبعض تشبث بالواقع وجعل العقل لا دور له إلا التصديق على الواقع، والبعض جعل المعرفة الحقة ما كنت تحقق منافع مجسدة، ولا عبرة بصحة المعرفة في ذاتها أو مطابقتها للواقع أو يقينيتها العقلية أولا-.ولو تأملنا القرآن الكريم لوجدناه يقرر أن للأشياء وجودا واقعيا مستقلا عما في الذهن البشري، أدركه الإنسان أم عجز عن إدراكه، وعدم إدراك الإنسان لبعض الأشياء لا يقتضي عدمها. أي أنه ليس كل موجود يمكن معرفته، فهناك من الموجودات ما لا سبيل لوسائل المعرفة الإنسانية إلى معرفتها ومن هنا كانت تبعية نظرية المعرفة لنظرية الوجود في القرآن، فما هو موجود لا يتعلق وجوده بمعرفة الإنسان له أو عدمها،

[1] انظر:
Charles Sanders Peirce, *The Monist Metaphysical Series* (1891), *The law of Mind* (1892)

فالموجودات أكبر من أن يلم بها أو يحصيها أو يدركها العقل البشري. (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا – الإسرآء: 85).

في سياق طبيعة المعرفة عندما نتأمل القرآن نجد أن المعارف ثلاثة أنواع -1:هناك ما هو فطري: وهو العلم الضروري الذي خلقه الله تعالى مركوزا في فطرة الإنسان ومنه العلم بالبدهيات العقلية وبالله وبالأسماء يقوا تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِين}31 البقرة -2.علم النبوة: وهو العلم الرباني الذي وصل إلى الإنسان من طريق الوحي: { كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيم -3 {المعارف الاكتسابية : وهي المعارف التي يكتسبها الإنسان من الوحي أو الكون أو كليهما بالحس والتجربة والعقل والحدس، { وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون} 78 النحل -.ثم أن طبيعة المعرفة تقتضي ميداناً لدراستها وهذا الميدان- وبحسب نصوص القرآن الكريم - اما أن يكون في عالم الغيب واما أن يكون في عالم الشهادة، وطبيعي أن البحث في عالم الغيب محدود، إذ أعفي الإنسان من الدخول في تفاصيله بحسبان ذلك خارجاً عن نطاق طرائق المعرفة لديه من حس وعقل على وجه التحديد، ويبقى أمامه مصدر الوحي وطريقته ما دام واثقاً من أحقيته في ذلك أما عالم الشهادة فهو الميدان الحقيقي للبحث.

القرآن يعطينا الأساس الذى يبنى عليه هيكل إمكان المعرفة، إذ أنه يحمل الشواهد التي تؤكد على إمكان المعرفة وإدراك الحقائق على وجه اليقين، بمصادر وأدوات، ونقف هنا على شواهد من الآيات التي حملت ألفاظاً ذات دلالات معرفية في سياقها المصطلحي ممثلين بآية واحدة لكل لفظ من ألفاظ (المعرفة) و (العلم) و (الحكمة) و(اليقين)، ومن ذلك قوله تعالى: (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين)[المائدة: 83]، (وما لهم به من علم إن يتبعون إلا

الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا)[النجم: 28]. ذلك مما ورد في شأن المعرفة والعلم، وفي شأن الحكمة قال تعالى: (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً) [البقرة: 269]. والحكمة قد فسرها المفسرون (بإصابة الحق والعمل به.(وفي شأن اليقين وتناقضه مع الظن يقول تعالى: (وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين) [الجاثية: 32]. كذلك أبان القرآن العلاقة بين الشك واليقين، والعلم والظن في مقابلة بليغة حوتها آية واحدة في قوله تعالى: (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما) [النساء: 157] .وإذا استصحبنا تداخل المعاني بين ألفاظ المعرفة، والحكمة، والعلم في النصوص الشرعية، والفكر الإسلامي عموماً، علمنا أن القرآن يحض على طلب العلم الراسخ والمعرفة اليقينية، ويدعو إلى نبذ الظنون، والشك، والتوهم ما أمكن ذلك، والنصوص الحاضة على العلم، والتفكر، والتأمل كثيرة في كتاب الله تعالى، وسنة نبيهe ، ومن أدوات المعرفة التي أشادت بها النصوص (الاجتهاد في الرأي) و(الاستنباط) المبني على أسس النصوص وأصولها، والصادر ممن هو أهل لذلك، فقد قال تعالى ناسباً إلى الأئمة المجتهدين القدرة على معرفة مراده.

يتفق النسبيون مع القائلين بإمكان المعرفة ووجود الحقيقة. ولكن هذه الحقيقة أو المعرفة الإنسانية لا تعدو ان تكون معرفة نسبية، بمعنى أنها ليست خالصة من الشوائب الذاتية وليست مطلقة، إنما هي مزيج من الناحية الموضوعية للشيء والناحية الذاتية للكر المدرِك، فلا تنفصل الحقيقة الموضوعية في التفكير عن الناحية الذاتية.إن نسبية المعرفة كما يراها أصحاب هذا المذهب، تعني أننا لا نستطيع أن نعرف كل شيء، فإذا عرفنا بعض الأشياء لن نستطيع أن نحيط بها إحاطة تامة، وما من فكرة في العقل إلا وكان إدراكها

تابعاً لمعارضتها بفكرة سابقة مختلفة عنها او شبيهة بها؛ لذلك كان من المحال إدراك المطلق لأنه لا يتصور وجود شيء خارجه حتى يعارض به.ويعتبر كانط رائداً لهذا المذهب، وهو يعتمد على فكرة التأليف بين العقل والأشياء، أو بين الذات والموضوع. والمعرفة اليقينية عن العالم الخارجي ممكنة عند كانط، بشرط أن لا تتجاوز حدود ظوتهلا الأشياء كما تتلقاها الحواس. ويعتبر انشتاين من اشهر دعاة المذهب النسبي في إمكان المعرفة[1].

الشك المطلق هو الشك المبني على إنكار المعرفة اليقينية، ونفي الحقائق، والقول بتكافؤ الأدلة، ومن ثم تعليق إصدار الأحكام. وهذه الصورة من الشك وصلت إلى مفكري الإسلام إثر حركة الترجمة مثلما وصلت إليهم ردود سقراط، وأفلاطون، وأرسطو على هؤلاء الشكاك والمغالطين، وفي إطار التفاعل مع تراجم الفلسفة اليونانية.[2]

الحديث عن علاقة الشك المطلق بإمكان المعرفة يتمهد للحديث عن الموقف المسلم من إمكان المعرفة - بالضرورة - لطبيعة العلاقة بين الشك المطلق وإمكان المعرفة، أو لكونهما على النقيض فإثبات أحدهما نفي للآخر.الوجود وإمكان معرفته (التصور الإسلامي للموجودات :إذا كان الشكاك الأوائل قد وصل بهم أمر الشك المعرفي إلى حد إنكار الوجود نفسه والأشياء وإمكان إدراك طبيعة ذوات الأشياء، فإن الفكر الإسلامي يقف موقفاً مغايراً لهذا التصور، إذ يقرر استنادا إلى القرآن وجوداً مستقلاً للأشياء خارج نطاق الذات المدركة إذ يقول تعالى: (قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) (النحل: 8) فهذا الخلق الرباني موجود من حولنا أحاط به إدراكنا أو لم يحط، أما التقسيم اليوناني

---

[1] انظر: ألان تورين: نقد الحداثة . ترجمة أنور مغيث. نشر المجلس الأعلى للثقافة 1997.

[2] انظر للباحث: التراث الهندي فى الحضارة العربية، مجلة المجمع العلمي العربي الهندي، العدد 13، 1-2، 1990.

للأشياء إلى: فيزيقية (طبيعية). و ميتافيزيقية (ما ورائية أو ما وراء الطبيعة.(فلا يبعد كثيراً عن التصور الإسلامي مع خصوصية المعاني والمفردات حيث تنقسم الأشياء إلى: 1- عالم الشهادة: ويشبه مفهوم عالم الطبيعة الخاضع لإدراك الإنسان بالحس والتجربة، والشهادة هي الخبر القاطع -2 .عالم الغيب: ويشبه مفهوم العالم الماورائي، وهو ما غاب عن الإنسان، ولم يدركه بحسه، وإنما بإخبار من الله ورسوله.ولفظا الغيب والشهادة – مع تقابل المعنى وردا تجاوراً في كتاب الله في عشرة مواضع، وجميعها وردت في بيان اختصاص الله تعالى بالعلم المطلق (غيب وشهادة). والمعرفة الكلية لا يتاح لبشر من خلقه أن يحيط بها على وجه الشمول واليقين[1].

كان مبحث المعرفة يشمل مجالا من المجالات التي تحتكرها الفلسفة وتحتضنها. فبالإضافة إلى مبحث الوجود الذي هو أول مباحث الفلسفة، ومبحث القيم، اهتمت الفلسفة بمدى قدرة الإنسان على إدراك الحقائق (حقائق الأشياء) ومعرفتها معرفة يقينية صادقة، أبالعقل أو بالحواس أو بهما معا؟ أو بطريقة ثالثة مخالفة لهما؟ وهل لكل أداة من هذه الأدوات حدود تقف عندها ولاتدرك ماتتعداه من حقائق؟ كيف تتكون المعاني والأفكار؟ وقد تراوحت الأجوبة بين الشك واليقين. فالذين يقرون بقدرة الإنسان على المعرفة اختلفت وجهات نظرهم في كيفية حصول المعرفة، وهذا هو مصدر انقسامهم إلى حسيين وتجريبيين من جهة، وعقليين من جهة أخرى، أو موفقين بين التجريبيين والعقليين. غير أن مايجدر التنبيه إليه هو أن الفلسفة التقليدية طرحت مسألة المعرفة من أفق أنطلوجي ميتافيزيقي متأثر بالاهتمامات التي سيطرت على الفلسفة. وهذا ماجعل مبحث المعرفة مبحثا ميتافيزيقيا يطرح المعرفة في إطار تعارض بين النفس والجسد. كما أن الأجوبة التي كانت تعطى فيه على مسائل

---

[1] أنظر: عبد الرحمن بن زيد الزُّنيدي، مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي (المعهد العالمي للفكر الإسلامي، و دار الفكر دمشق، 1992)

المعرفـة كانـت محـددة بنوعيـة الأجوبـة التـي يقترحهـا الفيلسـوف للمشـكل الأنطولـوجي. فثنائية أفلاطون على المستوى الأنطولـوجي بين العـالم المعقـول والعـالم المحسـوس، تـنعكس فـي نظرتـه للمعرفـة علـى صـورة ثنائيـة: المعرفـة العقلية والمعرفة الحسية، والقول بأن الحسية لاتعطينا سوى النظر بينما العقلية توصلنا إلى اليقين. بالإضافة إلى ذلك نظرت الفلسفة التقليدية إلى المعرفة في معناها الفلسفي العام، حيث لم يكن بالإمكان الحديث عن معرفة علمية بـالمعنى الضيق. هذا يعكس لحظة كانت العلاقة بين الفلسفة والعلـم علاقة هيمنة وتبعية، حيث إن الفلسفة كانت تنصب من نفسها المشرع والوصي على العلـوم. غير أنه بظهـور الفلسـفة النقديـة الكانطيـة التـي عاصـرت الثـورة العلميـة النيوتونيـة تغيـر الوضع، حيث حاول كانط في مقدمة الطبعة الثانية لكتاب " نقد العقل الخالص" أن يبـرز الخطـوط العامـة لمشـروعه الفلسـفي التجديـدي حيـث بـين أن هدفـه الأساسي هو الإجابة عن سؤال أصبح يفرض نفسه بإلحاح في تلك الفترة: لماذا يتقدم العلم ولماذا تفشل الفلسفة؟

إن الإجابة عن سؤال كهذا تقتضي حسب كانط البحث في بنية الممارسة العلمية وطبيعتها، لامن حيث المنهج والخطوات التي يسير عليها البحث العلمي فقط. بل الأسس والشروط العقلية والتجريبية التي تسمح بقيام المعرفة وتجعلها ممكنة. إن السؤال الفلسفي حسب مقدمة الطبعة الثانية هو: كيف يكون العلـم ممكنا؟ أي ماهي الشروط التي ينبني عليها العلم لتكون قضاياه يقينية؟ والجواب عن هذا السؤال سيخول لنا حسب كانط الوقوف على الأسباب التي تجعل من المتعذر قيام معرفة ميتافيزيقية. لهذا يمكن القول بأن وجهة النظر الابستمولوجية بـدأت تتبلـور مـع كـانط لاسيما وأنـه اهـتم فـي كتابـه المـذكور بتحليـل الأسـس والمبادئ التي تقوم عليها المعرفة عامة. وقد أدى إلى إبراز دور كل من الذات والموضـوع في عملية المعرفة.غير أن هـذا لايعني أن وجهـة النظر الأنطولوجية التقليدية لم يبق لها وجود داخل نظرية المعرفة الكانطية. بل العكس لقد بقيت

محافظة على نفسها.إلا أنها جعلت من العلم ومن ثورته مناسبة لإعادة النظر في ذاتها.بهذا يذهب الكثير من مؤرخي الفلسفة إلى أن فلسفة العلوم بالمعنى الحقيقي بدأت مع كانط، نظرا للتوجه الذي سارت عليه فلسفته النقدية والقائم على تحليل المعرفة إلى شروطها الأولية وعناصرها الأساسية. غير أن أهم تيار قطع مع مبحث المعرفة في صورته التقليدية هو التيار الوضعي الذي اعتبر أنه على الفلسفة إن أرادت أن تتحلى بالعلمية أن تجعل العلم موضوع اهتمامها، وليس من سبيل أمام الفكر كي يتقدم سوى الإقلاع عن البحث في القضايا الميتافيزيقية التي تصيبه بالعقم، واتخاذ العلم وقضاياه موضوعا للبحث والدراسة. وعلى أساس ذلك نقيم فلسفة علمية تكون بديل الفلسفة التقليدية، مع التركيز على أهم التيارات الابستمولوجية المعاصرة كالوضعية والتكوينية والعقلانية المعاصر،الأسس المفاهيمية و المناهجية التى تزودنا بها مصادر التنظير المعرفي فى الإسلام.[1]

[1] انظر للباحث:

Prof. Mohd. Sanaullah Al-Nadawi, The Yassine Scholastic Perspectives on Mind, Revelation and the Ultimate: A Methodological Critique of Positivism. In *Religion and Mind: Revisiting Imam Abdessalam Yassine's Thought*. Conference Proceedings. Afrique Orient. ISBN 978-9954-630-42-5, pp. 105-130.